مكتبة
الدراسات الفلسفية

الفلسفة الأخلاقية
في الفكر الإسلامي

العقليون والذوقيون أو النظر والعمل

تأليف

الدكتور أحمد محمود صبحي

مدرس الفلسفة بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

دار المعارف

WWW.ATHAREBARTAR.COM

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

حديث شريف

WWW.ATHAREBARTAR.COM

الإهـــداء

لقد تحليت بتواضع العلماء وسعة تفكيرهم حين أجزت هذه الرسالة للمناقشة ثم رحبت بنشرها مع ما فيها من اتجاهات وآراء تخالف اتجاهاتك وآراءك وما أعلنته فى كتبك .

إلى الأستاذ الدكتور على سامى النشار

كتعبير عن إكبار وتقدير

WWW.ATHAREBARTAR.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أسئلة كثيرة تدور بذهن الباحث فى الفلسفة الإسلامية ولا تلقى من جواب ، لماذا لم تحتل الدراسات الأخلاقية المكانة التى احتلتها سائر الدراسات ؟ كيف تكون الأخلاق بطبيعتها أقرب الموضوعات إلى الدين ولا تشغل بعد ذلك بال مفكرى الإسلام ؟ بل كيف يدلى هؤلاء المفكرون بآرائهم فى شتى العلوم ولا تكون من بينها الأخلاق ؟ إنه إذا كان الفقه متعلقاً بالعبادات فأى علم يتعلق بالمعاملات إن لم يكن الأخلاق ؟ فإن صح أن يتصور الدين بلا فقه فقد صح تصوره بلا أبحاث فى الأخلاق ، وهؤلاء الفلاسفة الذين شغفوا بأرسطو ما بالهم قد تأثروا به فى كل ما كتبه كالإلهيات والطبيعيات والمنطقيات ولكنهم أعرضوا عن الأخلاقيات [1] .

ومن ناحية أخرى كيف شغل المتكلمون بكثير من الدراسات المتعلقة بالإنسان وليس من بينها الأخلاق ؟ هل هم بدورهم أعرضوا عنها أم أنهم درسوها على نهج مخالف للنسق الذى اختطته لنفسها المذاهب الأخلاقية منذ اليونان إلى العصر الحديث ؟ وهل كان للمسلم من مشكلات فى الأخلاق بمعزل عن مشكلات الإنسان حيثما كان حتى تبقى الأخلاق الإسلامية فى واد والفلسفة الخلقية كلها فى واد ؟ والمتصوفة بدورهم هل الأخلاق عندهم عملية فحسب ؟ وكيف يتسنى أن يوجد عمل لا يستند إلى نظر ؟ ألم تصادف العمل مشكلات وعقبات تقتضى النظر ومن ثم البحث الفلسفى ؟

---

(١) باستثناء مسكويه .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

هذه الاستفسارات الخائرة لكى نحسم الإجابة عليها لابد من ثلاثة افتراضات :

الأول : أنه لابد أن توجد فى الفلسفة الإسلامية دراسات فى الأخلاق .

الثانى : أنه لابد أن هناك عقبات تعذرت معها الرؤية والكشف عن هذه الدراسات الأخلاقية .

الثالث : أنه إذا تم التعرف على هذه العقبات فلابد أن تسهم الفلسفة الأخلاقية لدى مفكرى الإسلام بدور مماثل لدور فلاسفة اليونان أو المحدثين من حيث إن مشكلات الإنسان من حيث هو إنسان لا تتقيد بقيود الزمان ومن حيث إن المسلمين قد أسهموا فى الثقافة العالمية بدور مشهود .

المشكلة الأولى هى مشكلة التقصى عن الاتجاهات الأخلاقية فى الفلسفة الإسلامية حتى إذا تخطينا هذه العقبة فإن المشكلات التى ستصادفنا هى سائر ما عرفته وصادفته الفلسفة الأخلاقية فى تاريخها ، من هذه المشكلات مدى صلة الأخلاق بعلوم أخرى كعلم الميتافيزيقا أو علم النفس ولندع جانباً علم الاجتماع الذى يريد أن يلغى الأخلاق كعلم .

ومن مشكلات الفلسفة الأخلاقية كذلك مشكلة العمل ، هل البحث النظرى فى الأخلاق يفضى بالضرورة إلى العمل ، من حيث إن الأخلاق علم عملى ؟ أم أن العمل قد ترك أمره للوعاظ والمصلحين ولا شأن للفلسفة به ؟

هذه هى الخطوط العريضة لمشكلات هذه الرسالة ولكن هذه الخطوط تحتاج إلى مزيد إيضاح .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

الباب الأول

مدخل إلى الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى

WWW.ATHAREBARTAR.COM

الفصل الأول

هل فى الفكر الإسلامى فلسفة أخلاقية

تكاد تكون الفلسفة الأخلاقية من أقل فروع الفلسفة حظًّا من عناية الدارسين والمؤرخين للثقافة الإسلامية — الأقدمين منهم والمحدثين على السواء ، فابن خلدون فى الفصل السادس من مقدمته حيث تناول « العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه » ذكر علوم العرب جميعاً دون أدنى إشارة للأخلاق [١] ، كذلك لا يذكر ابن صاعد الأندلسى [٢] فيما ذكره عن علوم العرب شيئاً عنها .

حقيقة لقد ذكرها الفارابى وجعلها أحد فرعى العلم المدنى فى إحصائه للعلوم[٣] ولكنه كان فى ذلك يترسم خطى أرسطو — سواء فى تصنيفه للعلوم — أم فى فهمه للأخلاق ، حقيقة لقد أضاف فى إحصائه علوماً إسلامية كالفقه ، ولكنه لم يخرج فى تصنيفه عن السياق العام لفلسفته من توفيق بين الدين والفلسفة وترسم خطى الفلسفة المشائية بمفهوم أفلوطينى ، وليس أدل على ذلك من أنه حين تعرض للأخلاق لم يضف شيئاً عما ذكره أرسطو من فهم للسعادة والفضيلة ومن جعل الأخلاق مقدمة للسياسة المدنية أو بالأحرى المدينة الفاضلة [٤] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل السادس ص ٣٠١ طبعة المطبعة البهية .

(٢) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٥٢ .

(٣) الفارابى : إحصاء العلوم — تحقيق د. عثمان أمين — طبعة ثانية سنة ١٩٤٩ ص ١٠١ .

(٤) الفارابى : تحصيل السعادة جزء ٢ والتنبيه على سبيل السعادة ج ٨ وما بعدها .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

أريد أن أقول إننا لا نجد لدى الفارابى علماً للأخلاق بمفهوم إسلامى أو عربى موضوعاً أو منهاجاً .

أما التهانوى فلقد أشار إلى الأخلاق فى مقدمة كتابه كشاف اصطلاحات الفنون حيث صنف فيها العلوم ، ولكنه كانت تعوزه النظرة الكلية فى فهم موضوع الأخلاق ، إذ هو يفصل بين النظر والعمل فى الأخلاق ، أما النظر فيفهمه فهماً مشائياً إذ الأخلاق أول أقسام الحكمة العملية حيث العلم بمصالح الشخص [١] ، وليس أدل على اقتفائه أثر أرسطو فى ذلك أن جعل القسمين الآخرين للحكمة العملية هما نفس ما ذكره أرسطو : تدبير المنزل والسياسة المدنية ، أما الأخلاق العملية لديه فيضفى عليها معنى إسلامياً إذ جعلها مرادفة للتصوف أو معرفة ما للنفس وما عليها من الوجدانيات ، وهى بذلك تقابل علم الكلام من حيث معرفة ما للنفس وما عليها من الاعتقادات ، فليس الجانب النظرى للأخلاق متصلا بها ولكنه علم آخر لا صلة له — فى نظره — بالأخلاق [٢] ، وهكذا كانت تعوزه النظرة الكلية لفهم طبيعة علم الأخلاق وموضوعه وجانبيه النظرى والعملى .

ويكاد يكون الاتجاه بين المؤرخين والدارسين والمحدثين أن ليس فى الفكر الإسلامى مذاهب أخلاقية معللين ذلك باستغناء المسلمين بتعاليم القرآن والحديث عن النظر فى المسائل الأخلاقية فلم يشعروا بالحاجة إلى النظر الفلسفى فى مشكلات الأخلاق ، أما اتجاهات القرآن أو الحديث فتنأى عن النظر الفلسفى فضلا عن أن تكوّن مذهباً أخلاقياً ذا نسق معين إذ لا تعدو طائفة لها قيمتها من المواعظ والحكم [٣] ، ولم تأخذ الأخلاق فى الإسلام حظها من البحث والدرس والكتابة العلمية إلا بعد الاتصال باليونان ، على أن جانب الأصالة والابتكار يعوزها إذ كانت متأثرة بالأفلاطونية المحدثة ، فضلا عن أن

---

(١) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ص ٣٨ .

(٢) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ص ٣٢ .

(٣) أحمد أمين : الأخلاق ص١٥٧ .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

آراء الفلاسفة الكندى والفارابى فى السعادة كانت تختلط بآرائهم فى النفس حيناً وبالمباحث الوجودية حيث نظرية الفيض حيناً آخر [١] ، ومن ثم كانت شهرة هؤلاء الفلاسفة بغير الأخلاق لأن كلامهم فيها جاء فى ثنايا عرض النسق الفلسفى العام .

وقد حاول الدكتور عبد الرحمن بدوى أن يبرر قصور الفكر العربى — فى رأيه — عن النظر الفلسفى فى الأخلاق واقتصاره على الحكم والأمثال القصيرة بقوله : إن الشرق موطن الأمثال والحكم القصيرة والكلمات العامرات بمعانى « الحكمة فى الحياة » ، ويعلق على ذلك بأن أدب الأمثال والحكم والمواعظ فيه من النفع بقدر ما فيه من الضرر فهو إن أفاد فى الحث على الفضيلة وفى استلهام الموعظة . . . فإنه يضر من حيث هو قيد يشد السلوك إلى صيغ مصنوعة وأفكار سابقة [٢] .

وبصرف النظر عما ذهب إليه الدكتور بدوى من تفسير فإنه قد تابع سائر الدارسين أن ليس فى الفكر الإسلامى نسق متكامل فى الأخلاق ، وأن العقلية الإسلامية لم تسهم فى الفلسفة الخلقية بنصيب أو أنها إن أسهمت فقد اختلطت أقوالهم بنظريات ميتافيزيقية ونفسية فى العقل الفعال أو فى معراج النفس طلباً للسعادة ، وما ذلك من البحث الأخلاقى المتعارف عليه فى شىء .

وأول ما يتبادر إلى الذهن حين ينقب أحد الدارسين عن اتجاهات أخلاقية فى الفكر الإسلامى أنه سيصادف فلسفة مسكويه الذى قد وصف بأنه أكبر باحث عربى فى الأخلاق [٣] ، ولكن مؤرخى الثقافة يذكرون آراءه غير مقتنعين بأن تحتل مكاناً بين المذاهب الأخلاقية وإنما لمجرد نفس النتيجة المتعارف عليها : ليس فى الفكر الإسلامى فلسفة أخلاقية ، كأن الفكر الإسلامى قد

---

(١) دكتور محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ص ١٥١/١٦٥ .

(٢) مسكويه : جاويدان خرد أو الحكمة الخالدة تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٩ .

(٣) أحمد أمين : الأخلاق ص ١٥٨ .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

عقم عن نتاج أخلاقى اللهم إلا فلسفة مسكويه التى لا تعدو — حسب رأى الدارسين — مزيجاً من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ثم ما جاءت به الشريعة من صنوف السياسات الأدبية ، وأنه حين حاول التوفيق بين هذا كله عز عليه المطلب وحيل بينه وبين الغاية [١] ، ذلك هو حال أكبر باحث عربى فى الأخلاق .

ولا تكاد آراء المستشرقين تضيف إلى ذلك شيئاً ذا بال ، اللهم إلا إشارات مبتسرة عن المعتزلة بصدد معالجتهم لمشكلة الخير والشر العقليين وهى فى نظرهم أبحاث لاهوتية أو عن الصوفية بصدد ما يذكرونه عن آفات النفس ولكنها مجرد اتجاهات عملية[٢] .

خلاصة الرأى أن ليس فى الفلسفة الإسلامية أبحاث أخلاقية لأن المسلمين قد اكتفوا بتعليم النص — كتاباً أو حديثاً — وقد أغنتهم هذه عن النظر العقلى أو البحث الفلسفى .

ولكن هذا الرأى يحتاج إلى مراجعة لأسباب كثيرة :

أولا : إن هؤلاء الدارسين كانوا قد ذهبوا إلى ما قبل عشرين سنة إلى رأى مشابه بصدد المنطق — أعنى افتقار الفكر الإسلامى إلى دراسات أصيلة فى المنطق وأن أبحاثهم كانت أرسطاليسية فى جملتها وتفاصيلها ، وقد أوضح باحث متعمق خطل هذا الرأى ، إذ أبان الدكتور على النشار جدة الفكر الإسلامى فيما كشف الستار عنه من أبحاث منطقية رائعة لعلماء أصول الفقه ولغيرهم من علماء الكلام الذين لم يجاروا القياس الأرسطى بل انتقدوه لعجزه عن تمثيل العقلية الإسلامية أو التعبير عنها .

أريد أن أقول ليس هناك ما يمنع من خطل رأى الدارسين بصدد الأخلاق كذلك .

---

(١) أحمد أمين : الأخلاق ص ١٥٨ .

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة — ترجمة د . يوسف موسى وزميليه ص ٩٤ و ١٥١ ، دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٢٧ .

WWW.ATHAREBARTAR.COM